بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

صدق الله العظيم

وقالَ بعضُ أَهْلِ العِلْم:

حِفْظُ اللُّغاتِ علينا فَرْضٌ كفَرْضِ الصلاةِ
فَلَيْسَ يُضْبَطُ دِيْنٌ إلاَّ بِحِفْظِ اللُّغاتِ

85468

ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية

بين علماء اللغة القدامى والمحدثين

الدكتور
عبد الفتاح حسن علي البجة
أستاذ النحو والصرف والعروض المساعد
كلية العلوم التربوية
الأونروا

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع
عمان ـ الأردن / عمارة الحجيري ـ ساحة الجامع الحسيني
هاتف ٦٢١٩٣٨ ـ فاكس ٦٥٤٧٦١ ـ ص.ب ١٨٣٥٢٠ عمان ١١١١٨ الأردن

رقم التصنيف : ٤١٥
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٩٧٧ / ٦ / ١٩٩٨)
المؤلف ومن هو في حكمه : عبد الفتاح حسن البجة
عنوان الكتاب : ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية
الموضوع الرئيسي : ١- اللغة العربية
٢- النحو والصرف
بيانات النشر : عمان - دار الفكر

* - تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 9957 - 07 - 002 - 9

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
سوق البتراء (الحجيري) - هاتف ٤٦٢١٩٣٨
فاكس ٤٦٥٤٧٦١ ص.ب ١٨٣٥٢٠ عمان ١١١١٨ الأردن

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى «الأصل والفرع»:

أما الأصل: فوالدتي -يرحمها الله- التي غرست في نفسي الصبر والكفاح وكانت مثلي في مغالبة الحياة.

وأما الفرع: فابني «محمد» وأخوته وأمهم الذين عايشوا معي مشاق هذا البحث وهمومه وشاطروني الجهد والسهر طوال ثلاث سنوات.

مع خالص حبي وتقديري

مقدمات البحث ومسوغاته

كان العرب قبل الإسلام في غنى عن اصطناع قوانين للغتهم، ولم تكن هناك دوافع تحفزهم إلى ترسيم قواعد توجّه نطقهم، وتجنبهم انحراف الألسنة، وذلك أنهم عايشوا لغتهم، ومهروها وراثة، وأجادوها مراناً ودُرْبة، إضافة إلى أنه لم يكن ثمة مُحْتَرَزٌ يخشاه العربي إذا ما ارتجل لغة غير معهودة، أو طوّر صيغة ليست مألوفة .

غير أن الظرف قد تبدل بعد ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم، دستور المسلمين، ومناط عبادتهم، فلم تعد العربية وسيلة تفاهم فحسب، بل لغة عقيدة، وأداة عبادة، مما جعلها ذات قدسية في نفوس المسلمين، وبات تعلمها مكملاً للدين، وغدا المساس بها مساساً به .

ولعل هذا يفسر اندفاع مؤسسي النحو لوضع القواعد اللغوية، إثر تسرب اللحن إلى النصوص القرآنية، وحرصهم الأكيد على دفع أحداثه عن لغة التنزيل، ومن ثم فإنه مهما قيل في سبب نشأة النحو العربي، فإن الحقيقة التي لا بدّ من رصدها هنا، وهي أن النحو العربي، شأنه شأن العلوم الإسلامية الأخرى، نشأ لخدمة القرآن الكريم، وفي ظلاله .

ولما كان القرآن الكريم محور الدراسات الإسلامية كافة، فقد بنى العلماء المسلمون دراساتهم، وأسسوا مناهجهم بما يتوافق مع قدسيته، ويتمشى مع تعاليمه، وهذا ما يوضح اجتهاد علماء اللغة للوصول إلى قواعد حرصوا على استصفائها من لغة فصيحة مثالية تشبه لغة القرآن، وتُبنى على قوالبه وأساليبه، الأمر الذي فرض عليهم انتقاء قبائل مخصوصة اشتهرت بالفصاحة، ويقرب مستواها اللغوي من النص القرآني، فارتحلوا إليها، وسمعوا منها، ودونوا لغتها.

بيد أنّ أخذهم اللغة عن تلك القبائل، لم يمكنهم من تحقيق هدفهم، وهو استخلاص نظام لغوي مطرد لا شواذ فيه، ولا شوارد، ذلك أن تدوينهم كان ناقصاً، وسماعهم لم يكن مستوفى، فهم لم يسمعوا كل ما قالته العرب في أغراضها المختلفة.

ولاستحالة هذا الأمر، استعانوا بالقياس، وأجروه على سماعهم ليُشكِّل معه منهجهم في تكوين الأنظمة اللغوية .

ولقدشغل القياس حيزاً كبيراً في الدراسات اللغوية قديماً وحديثاً، وانبنى عليه ما شاع في المؤلفات المتأخرة من غموض، واضطراب، وفوضى، خرج النحو بسببها عن جادة الطريق، وتنكّب الغرض المرجوّ منه، وهو الإبانة والإفهام، والاستعانة به في تقويم الألسنة، وغدا هيكلاً جافاً لا رَواء فيه، ولا حياة .

وقد تبدّى لي في البداية أن أدرس القياس بشكل عام لما لمست فيه من أثر عميق في الدرس النحوي العربي قديماً وحديثاً، غير أن النظر قد انصرف عنه بعد أن كشف لي الاستقصاء النحوي عن دراسات مستفيضة، وأبحاث شتى، وتآليف متخصصة عالجت جوانبه المختلفة.

غير أن كثرة مدارستي للقياس قد فتحت عيني على ظاهرة وثيقة الصلة به، بل هي إحدى معانيه التي عرفها القدماء ، وعرضوا أهميتها، وطبقوها تطبيقاً واسعاً في الدرس اللغوي كافة، ألا وهي «فكرة الحمل» التي استخدمت في تأويل المسائل الخارجة عن القياس، أو الظاهرة المطردة، وإعادتها إلى الظاهرة الأم، بتطبيق صورة من صورها، في محاولة لخلق نظام ذي قوانين عامة، تنضبط تحتها كل مفردات الظواهر اللغوية.

ولقد ارتأيت أن هذه الظاهرة جديرة بالدراسة، وحَريّة بأن يتناولها بحث يسبر غورها، ويبيّن مفهومها، ويستقصي صورها، ومع هذا فثمة دوافع أخرى رأيتها مقنعة لدراسة هذه الظاهرة أهمها:

١- أثر هذه الظاهرة العميق، وأهميتها في الدرس النحوي، فقد لعبت دوراً رئيساً في تفسير المسائل الخارجة عن القواعد المطردة، واستغلها العلماء القدامى استغلالاً واسعاً في إلحاق هذه المسائل بالظواهر الأصول، ومن ثم فقد شملت جوانب الدرس النحوي، فلا يكاد يخلو باب، أو فصل من آثار لهذه الظاهرة.

٢- على الرغم من أهمية هذه الظاهرة، وأثرها في توجيه الأنظار النحوية، فإن أحداً من العلماء القدامى، لم يفرد لها مؤلفاً ليعالجها كأسلوب متكامل اتبعه القدماء لتحقيق هدف معين، هو إنشاء قواعد لغوية خالية من الشواذ، وكل ما جاء من هذه الظاهرة فصول صغيرة، وأقوال مشتتة لبعض صورها تكاد تختفي في طيات المطولات النحوية .

٣- افتقار الدراسات النحوية الحديثة إلى دراسة واسعة، شاملة لهذه الظاهرة، فالمكتبة النحوية العربية تكاد تنعدم فيها مثل هذه الدراسة، اللهم إلا من مقالات قصيرة، أو أبحاث محدودة ،عالجت أجزاء منها، وفي مجالات مخصصة كأبحاثهم في التضمين في لغة القرآن، والحمل على الجوار في لغة القرآن، والكثرة والقلة، والحمل على المعنى، ومع هذا فإن هذه الدراسات طبعت بطابع نقدي سردي أظهرت في جملتها محاسن الأخذ بهذه الصور أو مساوئها.

٤- تباين وجهات نظر العلماء في هذه الظاهرة،قديماً وحديثاً، حتى ليكاد الباحث يلمس الاضطراب، والتناقض بين علماء المذهب الواحد، بل ربما في أقوال أحدهم، ومن ثم، يمكن ملاحظة مواقف متغايرة للعالم نفسه، فتراه يتحمس لصورة في حين ينكر ثانية وثالثة .

٥- ولعل وقوفي من خلال تعقُّب هذه الظاهرة عند المحدثين أرشدني إلى أن ثمة دراسات حديثة عربية، وغربية عالجت هذه الظاهرة من منظور الدراسات اللغوية المعاصرة، وحفزني إلى التعرف إلى وجهة نظر الدرس الحديث من فكرة الحمل، ومدى تطابقها مع ما أسموه «القياس الخاطىء» (False analogy).